الشمس

للأستاذ أحمد أمين

أى شىء أحب إلى النفس ، من التمة هذه الأيام بالشمس ، والحديث عن الشمس ؟

فقد أقرسنا البرد حتى اصطكت منه أسناننا ، وانكمش جلدنا ، ويبست أطرافنا ، وحتى وددنا — إذا رأينا النار — أن نحتضنها ، وإذا رأينا الجمرة أن نلتهمها ؛ ولوددت فى هذه الأيام أن أكون فراناً ، أو طباخاً ، أو سائق قطار ، حتى لا أفارق النار

* * *

كل شىء فى الطبيعة جميل ، وأجمل ما فيها شمسها

وهى فى شتائنا أجمل منها فى صيفنا ، ولها فى كلٍّ جمال

فلها — صيفاً — جمال القوة ، وجمال القهر ، وجمال السفور الدائم ؛ نُعظِمُها ونجلها ، ونهرب منها ولكن نحبها . تقسو أحياناً ، ولكنا نرى الخير فى قسوتها ؛ فهى كالمربى الحكيم ، تقسو وترحم ، وتشتد وتلين ؛ تلفحنا بنارها ، ولكنها نار كنار الحب يكتوى بها قلب العاشق ، ثم هو يرجو بقاءها ، ويخشى زوالها ؛ ترسل علينا شواظاً من نار ، فتسفع جلودنا ، وتكوى جباهنا ، حتى إذا غلا جوفنا ، ووغر صدرنا ، غابت عنا ، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) نخفف من حدتنا ، ولطف من سَورتنا ، وأصلح ما أفسدت ، وضمد ما جرحت ؛ فاذا خشيَت أن نطمئن إليه ، أدركتها الغيرة منه فغيبته ، وطلعت علينا ببهائها ، وجمالها وجلالها . وهكذا دواليك

* * *

وهى — شتاء — تطلع علينا بوجه آخر ، ترينا فيه جمال الحنو ، وجمال الدعة ، وجمال الرحمة والعطف ، وجمال الغادة اللعوب ، تشاغلك فتظهر وتختفى ، وتسفر وتحتجب ، وتخرج من قناعها ثم تتقنع

وتنتقم من رسولها الذى غارت منه صيفاً فتطلعه علينا فى جو بارد لا نطيقه ، حتى لا نفكر إلا فى دفئها وضمّها ، ولا نشتاق لشىء شوقنا لرؤيتها

فما أجملها قاسية وراحمة ! وما أجملها واصلة وهاجرة !

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول ، وتبهر العيون ؛ فهى تارة بيضاء ، وتارة صفراء ، وتارة حمراء ، ثم لا تستطيع أن تحكم هى فى أيها أبهى وأجمل ، فهى تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها

فتحت النافذة قبل أن أكتب مقالتى فتدفقت فى حجرتى أشعتها الفضية اللامعة ، وملأتها روحاً وحياة ، وملأتنى دفئاً ، وملأتنى معانى ، وكانت حياتى فى حجرتى قبل زيارتها حياة مظلمة باردة جامدة لا معنى فيها ولا روح

* * *

خلعتِ من جمالكِ على الزهر ، فكان فتنة للناظرين ؛ فجماله من جمالك ، ولونه قبس من ألوانك ، وحياته مدد من حياتك ؛ فأبيضه وأحمره ، وأصفره وأزرقه ، ليس إلا نعمة من نعمك ، وأثراً من فيضك

فالوردة الحمراء ليست إلا نقطة من دمك ، والياسمين الأبيض ليس إلا لمحة من نورك ، والنرجس الأصفر ليس إلا تبراً ذائباً من شعاعك

لقد أبيتِ على الناس أن يدعوا النظر إلى جمالك ، فألهيتهم بالنظر إلى بعض آثارك ، ولوّنت الأزهار بألوانك ، وأريتهم قدرة إبداعك . فشغل الجاهلون به عنك ، وشغف به العارفون على أنه قبس منك ، يطالعون جمالك فيه ، ويقرأون معانيك فى معانيه

* * *

ثم شأنك فى البحر عجب أى عجب ! تضربينه بشعاعك ، وتلفحينه بنارك ، فيتحول ماؤه بخاراً ، يصعد إليك ليستجير منك ، ويمثل بين يديك لتمنحيه عفوك ، وتنيليه عطفك ، حتى إذا شعر برضاك ، وأمن من غضبك ، دمع دمعة السرور ، ففارقته ملوحته ، وعاد إليه صفاؤه وعذوبته ، واكتسب منك الحياة فكان ماء جارياً ، بعد أن كان ماء راكداً ، تجرى جداول وأنهاراً ، فأرسلته إلى خدمك فى الأرض من أزهار وأشجار يحيى ذابلها ، ويستخرج دفينها ، وينضج ثمارها

* * *

ثم تحركت فملأت الحياة حولك حركة ؛ فكم من نجوم لا يحصيها إلا الله تسير حولك وتحذو حذوك ؛ ثم تلعبين بالهواء من سخونة وبرودة فيتحرك ، ويتعلم منك اللعب فيلعب بالبحار والأنهار والأشجار وبكل شيء يمر به ؛ فاذا الدنيا كلها لعبة في يده

ثم أنت أنت حرقت الأشجار والنبات ، وطمرتها تحت صفحة الأرض آلافاً من السنين بعد آلاف ، حتى إذا تنبه الناس آخر الزمان فطنوا إلى أنه مستودع من مستودعاتك ، فاستغلوه في كل ما نرى الآن من حركة ، فهو سر حركة المصانع والبواخر ، وسر حركة القطارات والآلات ، فلو قلنا إن كل حركة في الأرض أنت مصدرها لم نبعد

* * *

تلعبين بالناس فتنيمينهم وتوقظينهم ؛ ترسلين أشعتك الجميلة على العالم فينتبه ، وتغيبين عنه فينام ؛ ثم تتداولين العالم فتنبهين قوما وتنيمين قوما ، ويراك قوم شروقا وقوم غروبا ، وقوم ليلاً وقوم نهاراً ، وقوم صيفاً وقوم شتاء ، وأنت أنت في عليائك لا تملين الحركة ولا تشعرين بنوم أو يقظة ، ولا بليل أو نهار

* * *

بل بك يجري الدم في عروقنا ، فدمنا من غذائنا ، وغذاؤنا من حرارتك ، تسلطينها على الأرض فتخرجين منها « حباً وعنبا وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبّا » ؛ بل ما أفكارنا إلا منك ؛ أليست أفكارنا من دمائنا ، أو ليست دماؤنا منك ؟

بل لقد كنت حينا من الأحيان إله الناس ومعبودهم ، فكنت مصدر وحيهم ، ومصدر إلهامهم ، ووجهة عبادتهم . رأوك مصدر الحياة فعبدوك ، ورأوك مصدر النعم فحمدوك ، ورأوك يحيط بك كثير من الغموض على جلائك ووضوحك فألهوك ، ورأوك أكبر النجوم فربّبوك

ثم أتى الأنبياء فرأوك تأفلين فسلبوك ألوهيتك ، ورأوك تتغيرين فحولوا عبادتهم عنك

ولكن إن سلبوك ألوهيتك فلم يسلبوك عظمتك وجمالك وجلالك وكفاك ذلك فخراً

* * *

لست أدري أأصاب العرب إذ أنثوها أم أصاب الانجليز إذ ذكروها ؛ لعل الانجليز رأوا القمر وادعاً جميلاً هادئاً رقيقاً فأنثوه ، ورأوا الشمس قوية قاهرة قاسية فذكروها ؛ ولكن لعل واضعي اللغة من الانجليز لو عاشوا في عصرنا ، ورأوا ما نرى من قوة المرأة وضعف الرجل ، وجبروت المرأة واستكانة الرجل ، لرجعوا إلى رأي العرب ، وآمنوا ببعد نظرهم ، وقلبوا المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً

ولعل العرب أيضاً رأوا الشمس أمّ الأرض وأمّ القمر وأم الزرع فأنثوها ، إذ لا تلد إلا امرأة ؛ ورأوا القمر طفلاً يدور حول أمه فذكروه ، واحتاط العرب أن يدرك الشمس شيء مما يلحق الأنوثة فقال شاعرهم : « وما التأنيث لاسم الشمس عيب »

أما الشمس نفسها فلم تعبأ بتأنيث ولا تذكير ، كما لم تعبأ عن أنثها وعن ذكرها

فهي في سمائها تؤدي رسالتها ، وتسير سيرتها ، وتبهرنا بجمالها ، وتوحي إلينا بأسرارها

فما أعظمك ! وأعظم منك من خلقك !

٤ يناير سنة ١٩٣٧ أحمد أمين

لجنة التأليف والترجمة والنشر

قصة الفلسفة الحديثة

تصنيف

أحمد أمين ، زكي نجيب محمود

أتمت لجنة التأليف طبع هذا الكتاب وهو الحلقة الثانية لقصة الفلسفة اليونانية ، وقد ترجم لأشهر الفلاسفة من عصر القرون الوسطى إلى اليوم وبيّن فلسفتهم في أسلوب واضح

وقد حلي بصور الفلاسفة وهو في جزءين يقعان في نحو ٦٥٠ صفحة وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد

ويطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة